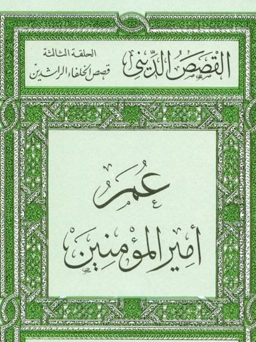


عبد الحميد جودة السحار

٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعْدًا عليه حقًّا في التّوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

« قرآن كريم »

١

كان المُثَنَّى بنُ حارثةَ الشَّيْبانيُّ قائداً على الجيوش الإسلامية ، التى تحاربُ الفرس فى العراق ، وقد جمعت الفرسُ الجموعَ لقتالِ المسلمين ، فرأى المُثَنَّى أن يذهبَ إلى المدينة ، ليقابلَ خليفةَ رسولِ الله ، ويطلبَ منه أن يُمِدَّه بالجيوش ، ليستمرَّ فى غزوِه وفتوحاتِه .

وسافر المُثَنَّى إلى المدينة . فلما بلغها ، وعلِم أنَّ خليفةَ رسولِ اللهِ مريض ، وأنَّه مشرفٌ على الموت ، طَلب الإذنَ بالدخول ، فأَذِنَ له . فلما دخل ، قال له :

– إنَّ الفُرسَ مختلِفون فيما بينهم ، وفى هذا فرصةٌ طيِّبةٌ للمسلمين ، وإنى أرى ضرورةَ إرسالِ مَدَدٍ من الجيوش، ليتمَّ لنا فتحُ العراق .

فأرسل أبو بكرٍ إلى عُمر ، وكان أوصى النّاسَ أن يستَخلِفوه عليهم بعدَ موته ، وقال له :

– اسمعْ يا عمرُ ما أقولُ لك ، ثمَّ اعمَل به : إنّى لأرجو أن أموتَ فى يومى هذا ، فإن أنا متُّ فلا تُمسينَّ حتى تندبَ الناسَ مع المُثنَّى (أى تطلبَ من النَّاسِ الخروجَ مع المُثنَّى لقتالِ الفُرس) ، وإن تأخرتُ إلى اللَّيل ، فلا تُصبحنَّ حتى تندبَ النَّاسَ مع المُثنَّى ، ولاتشغلْكم مُصيبة وإن عظُمَت ، عن أمرِ دينِكم ، ووصيةِ ربِّكم .

ومات أبو بكرٍ فى اللَّيل ، ودُفِن فى اللَّيل . ولما أصبحَ الصباح ، خرج عمرُ إلى النّاسِ بالمسجد ، فأقبلوا عليه يُبايعونَه ، وتوافدوا على المسجد ، حتّى إذا كان الظُّهر ،

ازدحمَ الناسُ للصَّلاة ، فصعِد عمرُ المِنبَر ، وقال :

– أيُّها النّاس ، ما أنا إلا رجلٌ منكم ، ولولا أنى كرِهتُ أن أرُدَّ أمرَ خليفةِ رسولِ الله ، ماتقلَّدْتُ أمرَكم (أى ماقبِلتُ أن أكونَ حاكمًا لكم) .

ورفع بصرَه إلى السَّماء ، وقال :

– اللهُّم إنّى غليظٌ فليِّنّى ، اللهمَّ إنِّى ضعيفٌ فقَوِّنى ،

اللّهمَّ إنِّي بخيلٌ فَسَخِّني : (أي اجعلْني جواداً كريما) .
إنَّ اللهَ ابتلاكُم بي ، وابتلاني بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحِبَيَّ (الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، والصِّدِّيق) ، ولئن أحسنوا لأحسِنَنَّ ولئن أساءوا لأُنكلَنَّ بهم .

وصلَّى عمرُ بالنَّاس ، ثم وقف يدعوهم أن يخرجوا مع المُثنَّى لقتالِ الفُرس ، فلم يُلَبِّ أحدٌ دعوتَه ؛ كان المسلمونَ يخشوْنَ « فارسَ » ؛ لشِدَّةِ سلطانهم وشوكتهم ، وقهرِهم الممالك .

ومرَّ اليومُ ولم يتقدَّم أحدٌ للخروج لقتالِ الفُرس ، فحزن عمر ، وبات ليلتَه يُفكِّر ، فاهتدَى إلى أنَّ الناسَ يخشَوْنَ شدَّتَه وغِلْظَته ، فقد كان شديداً أيَّامَ النبيِّ ، وفي أيَّامِ خلافةِ أبي بكر ، فعقَدَ العزمَ على أن يشرحَ للنَّاسِ سياستَه ، ليُزيلَ من صدورِهم هذا الخوف وهذه الرَّهبة .

وأصبحَ الصَّباح ، وخرج عمرُ إلى المسجد ولما ازدحمَ المسجدُ بالنَّاس ، صعِد المِنبرَ ، وقال :

— بلغني أنَّ الناس هابُوا شدَّتي ، وخافوا غِلْظتي ، وقالوا : قد كان عمرُ يشتدُّ علينا ورسولُ اللهِ بينَ أظهُرنا ،

ثم اشتدَّ علينا وأبو بكرٍ والينا دونَه ، فكيف وقد صارتِ الأمورُ إليه ؟ ! ومن قال ذلك فقد صَدق : إنني كنتُ مع رسولِ اللهِ ؛ فكنتُ عبدَه وخادمَه ، وكان مَنْ لا يبلغُ أحدٌ صفتَه من اللّينِ والرَّحمة ، وكان ـ كما قال اللهُ ـ بالمؤمنينَ رءوفاً رحيما ، فكنتُ بين يديه سيفاً مسلولا ، حتى يُغمدَني أو يدعَني فأمضي ، فلم أزلْ مع رسولِ اللهِ حتى توفّاهُ اللهُ ، وهو عنّي راض ، والحمد للهِ على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعَد .

ثم وليَ أمرَ المسلمين أبو بكر ، فكان من لاتُنكرونَ دَعَتَهُ وكرمَه ولينَه ، فكنتُ خادمَه وعونَه ، أخلِطُ شِدّتي بلينِه ، فأكونُ سيفاً مسلولا ، حتى يُغمدَني أو يدَعَني فأمضي . فلم أزلْ معه كذلك حتى قبضه اللهُ عزَّ وجلَّ وهو عني راض ، فالحمدُ للهِ على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعَد .

ثم إنّي قد وُلّيتُ أمورَكم أيها النّاس ، فاعلموا أنَّ تلك الشدَّةَ قد أُضْعِفَتْ ، ولكنَّها إنما تكونُ على أهلِ الظُّلمِ والتعدِّي على المسلمين ، فأمَّا أهلُ السلامة والدينِ والقصد ،

فأنا أليِنُ لهم من بعضهم لبعض ، ولستُ أدعُ أحدًا يظلمُ أحدا ، أو يتعدَّى عليه ، حتى أضعَ خدَّه على الأرض ، وأضعَ قدمى على الخدِّ الآخر ، حتى يُذعِنَ بالحق ، وإنِّى بعد شدَّتى تلك ، أضع خدِّى على الأرضِ لأهلِ العَفافِ وأهلِ الكفاف .

لكم علىَّ أيها النَّاس خصالٌ أذكُرها لكم ، فخذونى بها : لكم علىَّ ألا أجتَبى (آخُذَ) شيئا من خراجِكم ، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهِه ، ولكم علىَّ إذا وقع فى يدى ألا يخرُجَ منى إلاَّ وهو فى حقِّه ، ولكم علىَّ أن أزيدَ عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسُدَّ ثغورَكم ، ولكم على ألا ألقِيَكم فى المهالك ، ولا أجمِّرَكم فى ثغورِكم ، ولا أجمعكم فى مواطنِ القِتال ، ولا أحبِسكم عن العودة إلى أهلكم ، وإذا غبتُم فى البُعوثِ فأنا أبو العِيال .

فاتّقوا اللهَ ، عبادَ الله وأعينونى على أنفُسِكم ، بِكفِّها عنى ، وأعينونى على نفسى ، بالأمرِ بالمعروف ، والنَّهْيِ عن المنكر ، وإحضارى النصيحةَ فيما ولاّنى الله من أمرِكم . أقولُ قولى هذا ، وأستغفِرُ الله لى ولكم .

وطلب عمرُ من النّاس أن يخرُجوا مع المُثنّى لحربِ الفُرس ، ولكن لم يخِفَّ أحدٌ لتلبيةِ هذا الطَّلب ، فقام المُثنَّى ، وقال :

ـ أيُّها الناس ، لا يُعظُمنَّ عليكُم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا (تمكنًا من) ريف فارس ، وغلبناهم على خيرِ شِقَّى السَّواد (الأرضِ الخصبة) وَشاطرْناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبلنا ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

وقام عمرُ يخطب النّاسَ . قال :

إنَّ الحجازَ ليس لكم بدارٍ إلاَّ على النُّجْعَة (أى طلب المرعَى) ، ولا يقوَى عليه أهلُه إلا بذلك . سيروا فى الأرض التى وعدكُم اللهُ فى الكتاب أن يُورِّثَكموها ، فإنه قال : « ليُظهرَه على الدّينِ كلهِّ » . واللهُ مُظهرٌ دينَه ، ومُعزٌّ ناصرَه ، ومولٍ أهلَه مواريثَ الأمم ، أين عبادُ اللهِ الصالحون ؟

وتلفَّت الناس ، وتقدَّم أبو عبيد بن مسعودٍ الثَّقفى ، فلما رأى سعدُ بنُ عُبْيْدٍ ذلك ، تقدَّم هو الآخر ، وتقدَّم سَليطُ بنُ قيس ، فسرتْ موجةُ حماسةٍ بين الحاضرِين ، فراحوا ينضمون إلى المسلمينَ الخارجين لملاقاة فارس .

واجتمع كبارُ المهاجرينَ والأنصارِ بعُمر ، وقالوا له:

ـ أمِّرْ عليهم رجلا من المهاجرينَ أو الأنصار .

فرفض عمرُ ذلك ، وقال :

ـ إنَّ من سَبَق إلى الدَّفع ، وأجابَ إلى الدُّعاء ، أولَى بالرياسة .

وأمَّر أبا عُبيد ، أوّلَ من لَبَّى النِّداء على الجيش ، وقال له :

ـ اسمعْ من أصحابِ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وأشْرِكهُم في الأمر .

٢

جلس عمر في المسجد ، ودخل أبو عُبيدٍ عليه يودِّعه قبلَ أن يسيرَ إلى العراق ، فقال له :

ـ السّلامُ عليك يا خليفةَ خليفةِ رسولِ الله .

وراح النَّاسُ يقولون له كلَّما حدَّثوه : يا خليفةَ خليفةِ رسولِ الله .

وأقبلَ رجلٌ ، وقال له :

ـ سلامُ اللهِ عليكَ ، يا أميرَ المؤمنين .

فلمَّا سمع النَّاسُ ذلك سُرُّوا ؛ كان لقبُ « أمير المؤمنينَ » خفيفاً على السَّمع ، فراحوا يقولون لعمرَ كلَّما حدَّثوه : يا أميرَ المؤمنين ! وبذلك كان عمرُ أوّلَ حاكمٍ مسلم لُقِّبَ بأميرِ المؤمنين .

٣

سار أبو عُبيدٍ بالجيوشِ الإسلاميَّة ، وراح ينتقّل من نصر إلى نصر ، فأقلق انْتصارُ العربِ الشَّعبَ الفارسيَّ ، فتجمهرَ النَّاس أمامَ القصرِ المَلكيِّ ، وجعلوا يطلبون طردَ المسلمينَ من العراق ، وأخرجوا (الدِّرَفْس كابيان) وهى رايةُ كِسْرَى ، وهى من جلودِ النُّمور طولُها اثنا عشرَ ذراعا ، وعرضُها ثمانيةُ أذرُع ، وكانت على خشبٍ طُوَالٍ مُوَصَّل ، وما كانت فارسُ تظهرُها إلا فى الأمرِ الشَّديد . وسببُ اعتزازِهم بهذه الرَّاية ، أنَّ أحدَ ملوكِ الفُرْس جارَ على رعيَّتِه ، وعذَّبهم وظلمهم ، فلم يُطِقْ حَدَّادٌ ذلك الظُّلمَ الشَّديد ، فخرج من حانوتِه ، وخلعَ الجلدَ الذى يربطُه فى وسطِه ، ورفعَه على عصًا طويلة ، وسار يهتف : « من لا يُطيقُ الظُّلم فليتْبعنى » . فتشجَّع بعضُهم وانضمّوا إليه ، فسارَ إلى القصر المَلكيّ ، والنَّاسُ تنضمُّ إليه ، حتّى بلغ القصر ، وخلع الملك ، ونصَّبَ النَّاسُ الحدَّادَ ملكا ، وأسّس الدولة الكِسْرَويّة ، فاتّخذ مُلوكُها رايةَ الحَدّادِ شِعارًا لهم ، ثم استُبدلَت بجلدِ النُّمور .

واجتمعت الجيوشُ الفارسيَّة ، وسارت حتى بلغتِ الفُرات ، فعسكرتْ على ضِفَّتِه ، وجاءت جيوشُ المسلمين وعسكرت على الضِّفَّةِ الأخْرى ، ولم يكن يفصِلُ بينهم إلا النَّهر .

أرسل قائدُ الفرس إلى أبى عُبيدِ بن مسعود : إمّا أن تعبرُوا إلينا ، وإمّا أن تدَعونا نعبرُ إليكم ، فاجتمع رؤساءُ الجيوشِ الإسلاميَّة ، وتداولوا فى الأمر . كان من رأيهم أن يدَعوا الأعداءَ تعبرَ إليهم ، ولكنَّ أبا عبيدٍ رأى أن يعبُرَ المسلمون ، فأمر بإنشاءِ جسْرٍ ، فراح الناسُ يعملونَ فى إنشائه . ولما تَمَّ عبر عليه المسلمون ، والتفتَ أبو عُبيدٍ إلى الجسر ، وأمر بقطعه ، فأسرع النّاسُ إليه ليمنعوه ، وقال قائل منهم :

ـ أيها الرجل ، إنّه ليس لك علمٌ بما ترى ، وأنت تخالِفُنا ، وسوف تُهلك من معك من المسلمين ، بسوءِ

سياستك ، تأمرُ بجسرٍ قد عُقد أن يُقطَعَ فلا يجدَ المسلمونَ ملجأ من هذه الصحارَى والبرارىّ ، فلا تُريدُ إلاَّ أن تهلِكَهم فى هذه القطعة .

ولم يقبلْ أبو عبيدٍ وقطعَ الجسر ، كان يُريدُ أن يحارب المسلمون وهم يعلمون أن ليس لهم إلا الموتُ أو النصر ، فلم يَعُد هناك طريقٌ يفرّون منه .

وسَوَّى المسلمونَ صفوفَهم ، واستعدّوا لملاقاةِ الأعداء ، وأقبلتْ جيوشُ فارسَ أمامها فيل ، وابتدأ القتال ، فجرتِ الدماءُ أنهارا ، وقُتل من الفرس ستةُ آلاف ، وتقدَّم الفيل ، يضربُ المسلمينَ بخُرطومِه ، فدبَّ الذُّعْر بينهم وفرّوا من أمامِه ، ولما رأى أبو عبيد ذلك نزل عن حصانِه ورمُحه فى يدِه ، واندفع نحوَ الفيل ، وصوَّب إلى عينيه ضربةً هائلة ، فراح الفيلُ يضرب بيدِه ، فضرب أبا عُبيدٍ ضربةً قاتلةً فسقط ميِّتا .

رأىَ الجندُ ما حلَّ بقائدِهم فذُعروا ، وهربوا ، فراح الفُرسُ يضربونهم بسيوفِهم ، وألقى المسلمون بأنفسهم فى النهر ، وصاح المثَنَّى :

ـ أعيدوا عقدَ الجسر .

وراح المسلمونَ يعقدونه ، والمُثنّى ومن معه يتحمَّلون هَجَماتِ الأعداء ، ولما تمَّ عَقدهُ ، صاح :

ـ يأيُّها النَّاس ، أنا دونكم (أى سأدافع عنكم) فاعبُروا على هِينَتِكُم (راحتكم) ، ولا تدهَشوا ، فإنّا لن نزايلَ (لن نترك مكاننا) حتَّى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تُغرقوا أنفسَكم .

واستمرتِ الحربُ طاحنةً بين المُثنَّى ومن معه ، وبين جيوشِ الفرس ، وأسرَعَ النّاسُ إلى عُبورِ الجسر ، ولكنَّهم وجدوا رجلاً عند رأسِ الجسر شاهرًا سيفه ، يمنَع النَّاسَ من العبور ، وهو يصيحُ فيهم :

ـ لن نفرَّ أبدا ، لن نفرَّ أبدا ، موتوا على ما مات عليه أمراؤُكم .

فتكاثروا عليه وأخذوه ، وأتَوا به المُثنَّى ، فضربه وقال له :

ـ ما حمَلَك على هذا ؟

- ليقاتلوا وليموتوا على ما مات عليه أمراؤهم ، أو يظفروا .

وراح النَّاسُ يعبُرون الجسر ، والُمثنَّى وفرسانُ المسلمينَ يحمونَ المنسحبين ، وقاتلوا قتالَ الأبطالِ وهم يتقهقرونَ صوبَ الجسر ، وأخذَ مَن مع الُمثنَّى فى العبور ، وراح الُمثنَّى يعبُر الجسرَ وهو يقاتل الفُرس . ولما انتهى من العبورِ قَطعَ الجسرَ خلفه .

وارتمَى الُمثنَّى على الشاطىء منهوكا ، وفرَّ المسلمون وهاموا على وجوههم ، وذهب أغلبُهم مفزوعينَ إلى المدينة .

وحاول الفرسُ عُبورَ النَّهر ، ومطاردة المسلمين ، والقضاءَ عليهم ، وبقىَ الُمثنَّى ومن معه ينتظرونَ قضاءَ الله ، بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان . كان الموتُ يقتربُ منهم وما يحول بينهم وبينه إلا ذلك النهر : انتظروا قضاءَ الله صابرين ، فلن ينجيَهم مما حاق بهم من خطرٍ إلا معجزةٌ من السماء .

وجاء عونُ الله سريعا ، فما همَّتْ جيوشُ الفُرسِ بالعبور ، حتَّى سرَى نبأ بينهم أنَّ الناسَ فى عاصمةِ مُلكهِم قد ثاروا ، وانقسموا قسمين ؛ فانشغلوا بذلك وانسحبوا ، فلما رأى المثَّنى انسحابَهم ، خرَّ ساجداً لله ربِّ العالمين .